

في التربية الديمقراطية

الحكم الذاتي في المدرسة (*)

للأستاذ السيد يعقوب بكر



سوف لا نعرض في هذا البحث للتجارب التي أجريت في هذه المسألة؛ فإن هذه التجارب كثيرة كثيرة لا نستطيع معها حصرها في بحث مثل هذا البحث؛ وهي كذلك ذات صبغة بيئية إن صحَّ هذا التعبير. فهناك تجارب إنجليزية وتجارب أمريكية وتجارب أسترالية وتجارب فرنسية، وطبيعي أن هذه التجارب لا تهتمنا كصيرين لهم بيئتهم الخاصة وتعليمهم الخاص الذي توحى به هذه البيئة؛ هذا إلى أن من هذه التجارب ما كان مسرحه المدرسة الابتدائية وما كان مسرحه المدرسة الثانوية وما كان مسرحه الجامعة، وواضح أن هذه التجارب لا تصلح لمدارسنا وجامعاتنا لسبب بسيط جداً وهو أن مدارسنا وجامعاتنا تختلف عن تلك المدارس والجامعات الأجنبية التي جعلت مسارح تجرى عليها تجارب الحكم الذاتي؛ كذلك أجريت تجارب في الحكم الذاتي على التلاميذ الذين لم يبلغوا سن البلوغ والمراهقة preadolescents وعلى الطلبة الذين بلغوا هذه السن adolescents، وهنا أيضاً لا نستطيع تطبيق هذه التجارب على من لم يبلغ هذه السن من تلاميذنا وعلى من بلغها لسبب بسيط جداً أيضاً، وهو أن هؤلاء يختلفون اختلافاً كبيراً عن نظرائهم في البلاد الغربية.

وإذن فلن نعرض لهذه التجارب التي أجريت في الحكم الذاتي. وإنما سنعرض فقط للمبادئ العامة التي تسيطر على هذا الموضوع.

وأول ما نعلمه في هذا الصدد أن نبين مكان الحكم الذاتي من التأديب discipline.

فنحن نعرف أن الأستاذ مكمان McMunn يقسم تطور التأديب من حيث البعد عن الحرية أو القرب منها إلى ثلاث مراحل متتابعة: مرحلة الإرهاب Phlebotomism، ومرحلة التأثير بال شخصية Impressionism، ومرحلة التحرير Emancipationism في المرحلة الأولى كان المعول على القوة وحدها، وكانت الصا هي أداة التفاهم الوحيدة بين المعلم والتلميذ

وفي المرحلة الثانية - وهي مرحلة انتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثالثة - هذب المربون من حاشيتهم ورفقوا من جفوتهم وإن لم يزودوا تلاميذهم بعد بالحرية الكاملة التي يتطلعون إليها والتي هي في الحق من حقهم

أما المرحلة الثالثة؛ فهي التي تمثلها المدرسة الحديثة في التربية وهذه المدرسة ترمي إلى تزويد التلميذ بحرية خالصة من كل قيد؛ ويجب أن تكون حرية التلميذ هذه إيجابية لا سلبية، فيجب - كما يقول السير روبرت بادن باول - أن يشجع التلميذ على أن يعمل ما يحب كما يحب وإن أدى به هذا إلى الخطأ، فهذه الطريقة وحدها يمكنه أن يكتسب خبرة في هذه الحياة

والأستاذ ماك مان McMunn يرفض نوع التأديب الذي تضمنته المرحلة الثانية، ولكن الدكتور الكورث براون E. Elkworth Brown لا يقره على هذا الرفض

والسير جون آدمز يخرج من اعتباره النوع الأول من التأديب؛ ويترك النوع الثاني لحك الحياة يظهر ما فيه من زيف أو صلاح؛ وينظر في النوع الثالث فيرى أن مفهومه يقتضى من المعلم أن يكظم شخصيته وأن يلفها في مدارج النسيان، فيقول إن هذا غير ممكن الحدوث، فشخصية المعلم تظهر بالرغم منه وتترك أثرها في التلاميذ، وهو لا يستطيع بحال ما أن يتخلص ما يلقيه على تلاميذه من أصباغ شخصيته. ويزيد السير جون آدمز على ذلك فيقول إن دعاة هذا الذهب الجديد يعترفون بصحة ما يقول

والذي تقصد إليه من كل هذا هو أن تقول إن الحكم

الذاتي مظهر من مظاهر المدرسة الحديثة في التربية

صعوبة التوفيق بين كبح نزعة الفس في الامتحان والعمل
- في نفس الوقت - على خلق اتجاهات صحيحة وعادات
صحيحة في نفوس الطلبة

هذا عن نظام الشرف . أما الحكم الذاتي في المدارس غير
العالية فقد دفع إلى اصطناعه غرضان هما بدون شك أوسع مجالاً
من الغرض الذي دفع إلى اصطناع نظام الشرف : فالغرض
الأول هو إيجاد وسيلة لتعليم علم الحكم المدني civics تكون
أكثر موضوعية وإيجابية ، والغرض الثاني هو العمل على أن
تنمى حكومة المدرسة الروح الاجتماعية عند كل طالب .

فهذا هو الفرق بين النظامين .

على أن هناك نظاماً آخر يحسن أن نتحدث قليلاً عما بينه
وبين نظام الحكم الذاتي من فروق ، ونعني بهذا النظام نظام
العرفاء prefect system . فبين هذا النظام ونظام الحكم
الذاتي ثلاثة فروق رئيسية : فالفرق الأول يتلخص في أنه في
نظام العرفاء يخوّل السلطة عددٌ قليل من التلاميذ كبار السن
بينما أن السلطة في نظام الحكم الذاتي يخوّلها التلاميذ جماعة ،
والفرق الثاني يتلخص في أن أعمال العرفاء prefects تنفيذية
أكثر منها تشريعية ؛ فنظم القوانين التي ينفذونها ليست من
تشريعهم . والفرق الثالث يتلخص في أن هؤلاء العرفاء يختارون
من قبل ناظر المدرسة ويكونون مسئولين أمامه بدلاً من أن
يكونوا نائبين عن الجماعة .

وهنا يحسن بك أن تسألني عن كنه الحكم الذاتي لأقول
لك إنه تخويل جماعة من التلاميذ سلطة كاملة لمباشرة شئون
حياتهم المدرسية كلها أو بعضها .

وهذا الحكم الذاتي لم يصطنع عبثاً ، بل لتحقيق أغراض
يُرعى تحقيقها من ورائه .

فمن هذه الأغراض تنمية القدرة على التعاون co-operation
ونحن نعرف أن للتعاون أهميته العظيمة في الدول الديمقراطية ،
بل وفي ذلك المحيط الفسيح الذي نسميه بالمجتمع الكبير Society
Great والذي نحن جميعاً أبعاض منه . وإن المجتمع الحديث

وهنا يحسن أن نتحدث قليلاً عن تاريخ المسألة
فليس من شك في أن النظام يجب أن يتوفر في التعليم
المدرسي حتى يمكن لهذا التعليم أن يحقق الغاية المقصودة منه .
لذلك كان النظام في المدرسة أمراً على جانب كبير من الأهمية
في نظر الجميع . ومن ثم أخذت المدرسة تهدف إلى أن تبث
في جوها نظاماً مباشراً immediate orderliness ، فما أدى
في كثير من الأحيان إلى إهمال الغرض التربوي المقصود تحقيقه
عن طريق النظام . ولكن ازدياد الاهتمام بالأفراد ولا سيما
الأطفال ، ومطالبة المدرسة بإخراج تلاميذ قادرين على أن
يشاركوا في التعاون الاجتماعي في هذه الحياة ، وتسلبت علم نفس
صحيح على المدارس ، كل هذا دعا إلى ترك هذا النوع من
التأديب الذي لا يهدف إلا إلى مجرد النظام إلى نوع من التأديب
آخر يتحقق من ورائه نمو الشخصية والتعاون الاجتماعي
الثابت في المدرسة

وقد تجلت تلك النزعة في أمريكا في عدة محاولات ترى
إلى زيادة حرية الأطفال ومسئوليتهم في مباشرة نواحي نشاطهم
في الفصل وفي خارج الفصل . ولقد ظهر أثر هذه النزعة أول
ما ظهر في الكليات والجامعات فيما يُعبر عنه باسم نظام الشرف
honor system ثم ظهر بعد ذلك في الحكم الذاتي في المدارس
العالية high schools ، وأخيراً ظهر في المدارس الأولية

على أنه يحسن بنا هنا وقد أشرنا إلى نظام الشرف في معرض
كلامنا الوجيز عن تاريخ الحكم الذاتي أن نتحدث بإيجاز
شديد عن الفرق بين هذين النظامين كما هما في أمريكا . فنقول
إن وجود نظام الشرف في المدارس العالية يرجع إلى أنه لما
كان طلبة هذه المدارس يتمتعون من قديم بقسط وافر من الحرية
في مباشرة وجوه نشاطهم المختلفة في داخل هذه المدارس
وفي خارجها ، فإن المدرسين والمباشرين لأمور هذه المدارس قد
وصلوا هذه الحرية التي يتمتع بها الطلبة بنظام الامتحان وجعلوها
تفقد إليه لتدبر أمره . وكان الدافع لهم على ذلك أنهم لسوا

من أزهار الشر

لشارل برولير

عروج

ها أنتِ يا رُوحى ترفرفين هفافةً فوق الوهاد
والغدران ، والجبال والنايات ، والسحب والبحار ، وفيما
وراء الشمس والأثير ، والأفلاك النائية المرصعة بالنجوم .
وإنك لتعبرين الفضاء العميق ، مرحةً في شهوة عارمة
بمعجزاتها البيان ، كسائح ماهر غشيه الدهول في لجة الماء .
فلتخلق بعيداً ، بعيداً ، عن الجيف المتنتة . واصمدي
إلى الهواء الأعلى ، لتتطهري من أدراكها ، واحتسى النار
الساطعة التي تنمر الآفاق التالقة ، تكمر الحسية صافية .
طوبى لمن يستطيع أن ينطلق بجناح قوى إلى السموات
المشرقة الساجية من وراء الهموم والآلام العريضة التي تنوء
بأعبائها الحياة القائمة !

طوبى لمن كانت خواطره كالقنابر تطير عند الصباح إلى
السما حرة طليقة !
طوبى لمن رنق^(١) فوق الحياة ، وأدرك بلا عتاه لغة الزهور
والكائنات الصامتة !

ترجمة

علاء الدين

(١) رنق الطائر حلق دون أن يحرك جناحيه

حكم في اللجنة رقم ٨٤ عسكرية الجمالية سنة ١٩٤٣ بحبس محمد جرجس
توفيق ثلاثة شهور مع الشغل وتغريمه مائة جنيه وغلق المحل ثلاثة أيام
لرضه للبيع زناً بأزيد من التسمية

حكم في اللجنة رقم ٤٧ عسكرية بولاق سنة ١٩٤٣ بحبس رزق مرزوق
لمدة ثلاثة شهور مع الشغل وتغريمه مائة جنيه وغلق المحل ثلاثة أيام
لامتناعه عن بيع أرز وزيت بالسعر المحدد

حكم في اللجنة رقم ٩٠ عسكرية مصر الجديدة سنة ١٩٤٣ بحبس حسن
أحمد عبد الفتاح ستة شهور مع الشغل وتغريمه خمسين جنيهاً وجزلده
عشرين جلدة والفلق لمدة أربعة أيام لبيعها طماً بطلو بأزيد من التسمية

مدين يتقدمه بل وباستمرار وجوده لهذا التعاون الذي يربط
بين أفرادهم وبعض .

ومن هذه الأغراض تدريب التلاميذ تدريباً عملياً على أن
يكونوا مواطنين مستنيرين ، فإن دروس علم الحكم المدني لا يمكن
أن تنفي هذا التدريب العملي بحال ما . فالكتب لا تستطيع
بحال ما أن تطلعتنا على دقائق آلة العمل الحكومية أو على الطريقة
التي تدير بها الأعمال ، وإنما نطلع على كل هذا بالتجربة
وبالتجربة فقط .

وهناك غرض ثالث هو في الحقيقة غرض علاجي . ويبان
ذلك أن هناك أطفالاً ينزعون إلى أن يشعروا المجتمع بوجودهم
وإلى أن يحملوه على الاعتراف بأهمية هذا الوجود ، فإذا لم يجد
زوعهم هذا متنفساً يخرج منه إلى عالم الواقع والحقيقة فإنه
يتحول إلى عقدة نفسية تحمل هؤلاء الأطفال على أن يقفوا من
قوانين المجتمع موقف المراء ، وبذلك تكون حياتهم العاطفية
صراعاً مشتجراً بينهم وبين أولى الأوسر . وعلى ذلك فيجب أن
يؤسى إلى هؤلاء المتمردين على المجتمع أن القانون ليس جماعاً من
أوامر ونواه تمل عليهم وتقرض ، وإنما هو وسيلة تصطنع
لتحقيق مثل عليا بطمح إليها أفراد المجتمع ويشاركونهم في هذا
الطموح . وليس كالحكم الذاتي وسيلة لغرس هذا في نفوس
هؤلاء المتمردين

فهذه أغراض ثلاثة رئيسية يرجى تحقيقها عن طريق الحكم
الذاتي . وهناك أغراض أخرى ثانوية يصح أن نذكر بعضها .
فن هذه الأغراض الثانوية تدريب التلاميذ على ضبط النفس ،
وذلك لأن في تديريهم لأموالهم المدرسية تدريباً لهم على ضبط
أموالهم النفسية ؛ ولأن في تديريهم لأموالهم المدرسية تقوية
لمزيمتهم وشحنها لإرادتهم ، ولا بد لضبط النفس من قوة
في العزم ومضاء في الإرادة

ومن هذه الأغراض الثانوية أيضاً تقوية إحساس التلاميذ
بقيمة النظام وأهميته . ومنها كذلك تدريب التلاميذ على
سياسة الغير .

الهدم يعقوب بكر

(للمدبت بقية)